التشبيه والتجسيم في الفكر الكلامي الإسلامي
رؤية تحليلية لأدلة المجسمة في ضوء معتقد أهل السنة والجماعة

محمد رفاعي[1]
rifaima@hotmail.com

ABSTRACT

Ma`rifat Allāh (gnosis of God) is compulsory for all human being in order to achieve happiness in this world and hereafter. Allāh S.W.T. commands human being to know Him through His saying, means: "So know that there is no God (worthy of worship) except Allah." The Prophet p.b.u.h. also ordered them to be sincere in their devotion and they have not been asked to know Allah S.W.T. through His Dhat, but only by the means of His perfect Attributes. However, there are people who seek the reality of His Dhat and they used certain texts (nass) together with their imaginations and scepticism to represent Allah as similar to His own creation. The faith of early Muslims generations were pure, until they were influenced by the notions of "tashbīh" and "tajsīm" which came from the Jews and Christians teaching which is had been accepted by Shī`ah extremists. Furthermore, this kind of conception spread among the Ahl al-Sunnah wa al-Jama`ah. Adherents of this thought are called "al-Mujassimah" and "al-Mushabbihah. As their belief was revived in the name of Ahl al-Sunnah wa al-Jama`ahs belief, so therefore this article would like to explain the attitudes of Ahl al-Sunnah towards this complex issues.

[1] Mohamed Rifai, PhD, is a Senior Lecturer at the Faculty of Leadership and Management, University Science Islam Malaysia, Nilai, Negeri Sembilan.

Jurnal Usuluddin 29.indb 253 9/27/2010 5:34:02 PM

مقدمة

معرفة الله واجبة على الإنسانية أجمع لكي يظفر بالسعادة الأبدية في الحياة الآخرة، وطلب الله تعالى منا معرفته بقوله: «**فاعلم أنه لا إله إلا الله**»، فيجب علينا معرفة أنه تعالى واحد لا شريك له، وصمد لا ند له ولا ضد، ولم يكن له شريك ولا صاحبة ولا ولد، ولم يكن له كفوا أحد. وأمرنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن نجعل عبادتنا له تعالى خالصة لوجهه حيث قال: «**أعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فإنه يراك**».

ولم يدلنا تعالى فيما أنزل عن كنه ذاته وحقيقة أمره شيئا، فلم يبق من معرفته إلا معرفة وحدانيته وعظمته من خلال صفاته العلية وأسمائه القدسية، وشغف الإنسان وتعجله فى معرفة حقيقة معبوده معرفة تامة فى هذه الحياة الدنيا أدي إلى الدخول فى عالم الخيالات والأوهام فى وصف ربه الذي يعبده، وتصويره بشتى الصور والأشكال والحدود، ولم يعلم هذا الإنسان المسكين أن هذا طمع فى محال. وساعدهم فى هذا وجود نصوص شرعية من هنا وهناك توهم ما توهّمه خيالهم الفاسد. فبدأ يصور الإله في خياله المريض فى صور مخلوقاته الحادثة.

عقيدة الصدر الأول من الأمة كانت صافية نقية لصفاء موردها ومصدرها، فلم يعهد من الصحابة أو التابعين عقيدة التشبيه والتجسيم، إنما انتقلت إلى البيئة الإسلامية من اليهودية[٢] والنصرانية[٣] كما تذكر المصادر. إذ اليهود شبهت الخالق بالخلق، والنصارى شبهت الخلق بالخالق، فسرت هذه المشبهات في أذهان الشيعة الغلاة حتى حكمت بأحكام الألوهية في حق بعض الأئمة، وكان التشبيه بالأصل

---

٢ وقد أجمعت اليهود على أن الله لما فرغ من خلق السموات استوى على عرشه مستلقيا على قفاه، واضعا إحدى رجليه على الأخرى، هذا صريح التشبيه وغير ذلك كثير فى كتبهم المحرفة. راجع لمعرفة عقيدة اليهود وطوائفهم :الأندلسي ، علي بن حزم (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م)، **الفصل في الملل والأهواء والنحل** ، تحقيق: د. محمد إبراهيم نصير ود. عبد الرحمن عميرة، الرياض: شركة مكتبات عكاظ، جـ١صـ١٧٧ وما بعدها. وراجع : الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم (١٤١٠هـ-١٩٩٠م) ، **الملل والنحل**، تصحيح وتعليق : الأستاذ أحمد فهمي حمد ، بيروت : دار الكتب العلمية ، جـ٢ صـ٢٢٩ وما بعدها، وانظر أيضا لمعرفة انتقال التشبيه من اليهودية إلى الإسلام ، النشار ، علي سامي (١٩٨٢م)، **نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام**، القاهرة : دار المعارف ، جـ١، صـ٦٤ وما بعدها .

٣ يذكر ابن حزم عن عقيدت النصرانية :» النصارى وإن كانوا أهل كتاب ويقرون بنبوة بعض الأنبياء عليهم السلام، فإن جماهيرهم وفرقهم لا يقرون بالتوحيد مجردا، بل يقولون بالتثليث»، راجع : الأندلسي ، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، جـ١ صـ١٠٩ وما بعدها، والشهرستاني ، **الملل والنحل** ، جـ٢ صـ٢٤٤ وما بعدها.

Jurnal Usuluddin 29.indb 254 9/27/2010 5:34:03 PM

والوضع في الشيعة، وإنما عادت إلى بعض أهل السنة بعد ذلك»[٤].هكذا انتقلت العقيدة إلى البيئة الإسلامية واعتنقها أناس سموا بالمجسمة والمشبهة[٥].

ولم نكن نتطرق إلى فكر هذه الفرقة الضالة المنقرضة بهذا الاسم إلا أن لهم أذيالا فى عصرنا الحاضر ينشرون سموم التشبيه مرة أخرى باسم أنها مذهب السلف من الأمة. ويقتطعون إلى فكرهم العديد من عوام الخلق على أنها معتقد أهل السنة والجماعة، فكان من الضروري كشف غموض هذا الفكر لكي يتبين موقف علماء أهل السنة والجماعة الحقيقية – وهم أهل الحق – من هذه القضية الشائكة.

عقيدة المجسمة والمشبهة.

لقد صرحت المشبهة والمجسمة بأن الله على صورة ذات أعضاء وأبعاض، ويجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكن، وأجازوا على ربّهم الملامسة والمصافحة، وأن المسلمين يعانقونه في الدنيا والآخرة، وغيرها من الأمور التى تثبت الجسمية والحدود لله تعالى.

وتحدث الإمام الأشعرى عن قوم من هؤلاء المشبهة فقال أنهم: «يزعمون أن معبودهم جسم، وله نهاية وحدّ، طويل عريض عميق، طوله مثل عرضه، وعرضه مثل عمقه، لا يوفى بعضه على بعض... وزعموا أنه نور ساطع له قدر من الأقدار في مكان كالسبيكة الصافية يتلألأ كاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها... وأنه قد

---

[٤] الشهرستاني ، **الملل والنحل** ، جـ١ صـ١٦٧.

[٥] لقب هذه الفرقة «**بالمشبهة**» لتشبيهم الحق تبارك وتعالى بخلقه في وصفه بما هو من خواص الخلق، و»**بالمجسمة**» لقولهم في الله تعالى بالاتصاف بما هو من لوازم الجسم لزوماً بينا – كما سيتضح لنا من الدراسة– ويسمون أيضاً «**بالحشوية**» وسبب تسميتهم بهذا، أن طائفة منهم حضروا مجلس الحسن البصرى، وتكلموا بالسقط عنده، فقال: ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة –أى جانبها– فتسامع الناس ذلك، وسموهم الحشوية: وقيل: لقولهم بالتجسيم لأن الجسم محشو. وهم طوائف، منهم من شبه ذات البارى بذات غيره من المخلوقين، ومنهم من شبه صفاته بصفات غيره.
وكلهم متفقون أن الله جسم من لحم ودم وله أعضاء حتى قال بعضهم أعفونى عن اللحية والفرج وسلونى عما وراءه. تمسكوا بظواهر بعض النصوص حتى يثبتوا مذهبهم، هذا ما سوف نتكلم عنه في الدراسة تفصيلا.
راجع لمعرفة فرقهم وعقائهم : الشهرستاني ، **الملل والنحل**، صـ٩٢ –٩٧. وأيضا : الاسفراييني ، أبو المظفر(١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م) ، **التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين** بيروت : دار الكتب العلمية ، صـ١٠٧ وما بعدها. والبغدادي ، أبو منصور ، ب.ت ، **الفرق بين الفرق**، دراسة وتحقيق: محمد عثمان الخشت ، القاهرة : مكتبة ابن سينا ، صـ١٩٨–٢٠١. وراجع أيضا : ابن عساكر ، أبو القاسم الدمشقي (١٣٩٩هـ)، **تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى**، مع مقدمة الإمام محمد زاهد الكوثرى ، دمشق : دار الفكر ، صـ١٨.

Jurnal Usuluddin 29.indb 255 9/27/2010 5:34:03 PM

كان لا في مكان ثم حدث المكان بأن تحرك البارى فحدث المكان بحركته فكان فيه، وزعم أن المكان هو العرش» [٦].وقالوا أيضا إنه مستقرّ على العرش بذاته العلية استواءً حقيقيا. ثم يقول بعضهم مع أنه حقيقى بالذات مخالف لاستوائنا، ومنهم من يقول إنه تعالى على عرشه ماملأه، وأنه يقعد نبيه معه على العرش، وطائفة منهم تقول أنه قد ملأه، والأشبه أنه مماس له، والكرسى موضع قدميه. ونقل عن بعضهم أنه تعالى أكبر منه بأربع أصابع إذ لا يصح أن يكون أصغر منه لأنه العظيم ولا مثله لأنه ليس كمثله شيء فهو أكبر من العرش بأربع أصابع.

فهؤلاء القوم تمسكوا ببعض النصوص التى توهم ظاهرها ما لا يليق به تعالى. منها على سبيل المثال قوله تعالى: «**يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**»، وقوله: «**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ**»، وقوله: «**الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**» [٧] ، وقوله: «**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**» [٨] ، وقوله: «**تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ**» [٩] وقوله: «**يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ**» [١٠] ، وكحديث النزول والجارية.

نلاحظ أن القاسم المشترك لهذه الآيات والأحاديث أنها من قبيل المتشابهات التي تحتمل عدة معان. ومن الخطورة بمكان ترجيح أحد هذه المعانى لهذه المتشابهات وتعيينه على أنه هو المراد دون غيره من المعاني، ولاسيما فيما يتعلق بحق الإله. فنري أولا ما فعله علماؤنا الأجلاء سلفا وخلفا حيال هذه النصوص الموهمة فى حق الله تعالى.

موقف علماء الأمة من الآيات المتشابهات

وقد وقع الخلاف حول الآيات المتشابهات هل هى مما يمكن معرفة تأويله أم أنه لا يعلمه إلا الله تعالى وحده ؟

فقد انقسم العلماء حيالها إلى فريقين: فريق رأى أنه لا يعلم تأويل هذه المتشابهات إلا الله سبحانه وتعالى، وفريق أقرّ علم المتشابهات للراسخين في العلم. ومرجع الخلاف

---

٦ الأشعري ، أبو الحسن (١٤١١هـ – ١٩٩٠م)، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين** ، تحقيق : محمد محى الدين عبد الحميد ، بيروت : المكتبة العصرية، جـ١ صـ١٠٦.

٧ سورة طه: الآية ٥.

٨ سورة فاطر: الآية ١٠.

٩ سورة المعارج: الآية ٤.

١٠ سورة النحل: الآية ٥٠.

Jurnal Usuluddin 29.indb 256 9/27/2010 5:34:03 PM

بين الفريقين هو قوله تعالى في سورة آل عمران: "**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ**»[١١] .

فالفريق الأول:

يضم أكثر الصحابة والتابعين أو «السلف» كما هو المشهور أوجبوا الوقف على لفظ الجلالة في الآية السابقة، والواو في قوله «الراسخون» للاستئناف، و»الراسخون» مبتدأ، خبره «يقولون». بناءً على هذا منعوا التأويل والخوض في تأويل المتشابهات ولهم لذلك شواهد.

منها: أن ما قبل هذه الآية يدلّ على أن طلب المتشابه مذموم حيث قال: «**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**». فلو كان طلب المتشابه جائزا لما ذمّ الله تعالى أحدا على ذلك.

ومنها: أن الله تعالى مدح الراسخين في العلم بأنهم يقولون: «**آمنا به**» وقال في سورة البقرة: «**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ**»[١٢] .

فهؤلاء الراسخون لو كانوا عالمين بتأويل ذلك المتشابة على التفصيل لما كان لهم في الإيمان به مزيد مدح. ويستدلون أيضاً بأن إجماع الصحابة والتابعين على عدم الخوض في التأويلات حجة على أن التأويل مذموم غير مأمور به. يقول إمام الحرمين: «ذهب أئمة السلف إلى الإنكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها وتفويض معانيها إلى الرب تعالى، والذى نرتضيه رأيا وندين الله به عقلاً اتباع سلف الأمة فالأولى الاتباع وترك الابتداع. والدليل السمعى القاطع في ذلك أن إجماع الأمة حجة متبعة وهو مستند معظم الشريعة»[١٣] . من هنا نعلم أن السلف كانوا يحترزون عن الخوض في المتشابهات وتعيين المراد منها.

---

١١ () الآية: ٧.

١٢ الآية: ٢٦.

١٣ الجويني ، عبد الملك (١٤١٢هـ-١٩٩٢م) **العقيدة النظامية في أركان الإسلامية**، تحقيق وتعليق : محمد زاهد الكوثري ، القاهرة : المكتبة الأزهرية للتراث ، صـ٣٢.

Jurnal Usuluddin 29.indb 257 9/27/2010 5:34:03 PM

والفريق الثانى:

وهم خلف الأمة[١٤] . يرون أن حقيقة المتشابهات يعلم الله سبحانه وتعالى تأويلها وكذا الراسخون في العلم. وعلى هذا جعلوا جمله «الراسخون» في الآية معطوفاً على لفظ الجلالة، واستدلوا أيضاً بوجوه:

منها: قوله الله تعالى في تنزيله: «**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُوْنَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوْبِهِمْ أَقْفَالُهَا**»[١٥] ، أمر الناس بالتدبر في القرآن فيه. وكذا قوله تعالى: «**وَإِنَّهُ لَتَنْزِيْلُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ نَزَلَ به الرُّوْحُ الأَمِيْنُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُوْنَ مِنَ الْمُنْذِرِيْنَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِيْنٍ**»[١٦] . ولو لم يكن مفهوما فكيف يمكن أن يكون الرسول منذرا به.

ومنها: أن المقصود من الكلام الإفهام، ولو لم يكن مفهوماً لكان عبثاً. ثم إن التحدى وقع بالقرآن وما لم يكن معلوما لم يجز التحدى به، ومن هنا أجازوا تأويل المتشابهات التى أشكل معناه على عامة الناس حتى يكون واضحاً ومفهوماً.

فكان موقف معظم السلف التفويض، كما كان موقف الخلف التأويل؛ فإن التعليلات السابقة لموقفي الفريقين – وإن كانت صحيحة – فهناك دوافع أساسية دفعت أكثر السلف في الإمتناع عن الدخول في متاهات التأويلات، ودفعت الخلف – بل أجبرتهم – لخوض هذا المسلك.

إن الغالب على أكثر السلف الكف عن بيان المعنى المراد اللائق بالحق تعالى من هذه النصوص، والإمساك عن تعيينه ورعًا وتهيبا لذلك المقام الأقدس، لاسيما إن كان اللفظ الشريف يحتمل بمقتضى اللغة معنيين أو أكثر، كل منها لائق بالجناب الأقدس، وكفا لمن لا يعرف شروط التأويل عن الخوض فيما لا يحسنه؛ فإن العامي الجاهل إذا سمع من العالم تأويلا لكلمة يوجب العلمُ صرفَها عن ظاهرها سوّغ لنفسه أن يقول بغير علم بما شاء له الهوى في الكتاب والسنة، فضل ضلالا بعيدا، وفسدوا الذريعة وحسموا المادة. وأوصدوا الباب في وجوه العوام حتى لا يتهجم منهم متهجم على حرم الآيات والأحاديث الممنوع على أمثاله، لعدم اتصافه بالمؤهلات التى يفرق بها بين ما يجوز من التأويل وما لا يجوز منه. ولذلك كان الكثير منهم يقول:

---

١٤ وهم على الأرجح مابعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة النبوية الشريفة.

١٥ سورة محمد : الآية ٢٤.

١٦ سورة الشعراء : الآية ١٩٢.

Jurnal Usuluddin 29.indb 258 9/27/2010 5:34:04 PM

«تفسيرها قراءتها»، ويقولون: «أمروها كما جاءت من غير كيف».

ثم لم يخض السلف في التأويلات حرصا منهم على معتقد الذين قرب عهدهم بالجاهلية الوثنية، فضرر الخوض فيها أكثر من نفعه. وكان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون كلام الله وكلام الرسول بسليقتهم وفطرتهم ولم يكن يصعب عليهم فهم ما يستعصى فهمه على كثير ممن تأخر زمنه عن زمن نزول الوحى، فالمتشابهات بالنسبة للمتأخر كانت محكمات بالنسبة لهم، وعلى قدر الرسوخ في العلم يزول الغموض. فهذا سيدنا ابن عباس رضي الله عنه الذى كان يقول عنه سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم: «اللّهم علّمه التأويل وفقّهه في الدين»، وكان يقول هو: «أنا من الراسخين في العلم».

فلما بعد العهد عن زمن نزول الوحى بدأت تدب الخلافات في صفوف المسلمين. فقد اجتاحت الفتن أرجاء العالم الإسلامى ودخل في الإسلام العجم الذين لا يحسنون فهم اللغة العربية، وتشعبت الفرق والمذاهب، وكل صاحب مذهب أراد تأييد موقفه بآيات من القرآن الكريم حتى لا يتهمهم الناس بالخروج عن الملّة، فمن هنا بدأوا يبحثون عن قش يتمسكون به، وأمسكوا بأذيال آيات المتشابهات وأخضعوها لهواهم، وأوّلوها تأويلا باطلا حتى خرج معظمهم عن الدين. وثمة آخرون تمسكوا ببعض النصوص الموهمة، وفهموها على ظواهرها بدون علم ولا فقه، وفسّروها على هواهم بخلاف ما فسّرها الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم مدّعين بأنه هو مسلك المتقدمين ومنهج السلف، وهم منه براء.

فاقتضت الضرورة إلى رد نصوص المتشابهات إلى المحكمات وتفسيرها وتأويلها تفصيلا حتى لا يختار العامة بين أولئك الضالة، وحتى لا تكون أمور العقيدة غامضة ومتناقضة كما في سائر الأديان. يقول الدكتور سعيد رمضان البوطى: «إن مذهب السلف في عصرهم كان هو الأفضل والأسلم، والأوقف مع الإيمان الفطري المرتكز في كلٍ من العقل والقلب، ومذهب الخلف في عصرهم أصبح هو المصير الذى لا يمكن التحول عنه بسبب ما قامت فيه من المذاهب الفكرية والمناقشات العلمية وبسبب ظهور البلاغة العربية مقعدة في قواعد من المجاز والاستعارة[١٧].

[١٧] البوطي ، محمد سعيد رمضان (١٤٠٢هـ) ، **كبرى اليقينيات الكونية**، بيروت: دار الفكر للطباعة ، صـ١٤١.

Jurnal Usuluddin 29.indb 259 9/27/2010 5:34:04 PM

فمما سبق يتضح أن التأويل – سواء الإجمالي أو التفصيلي – مسلك لا محيد عنه حتى لا يتّهم أحد كتاب الله بالتناقض، ثم اللجوء إلى التأويل الإجمالي أو التفصيلي، وتفضيل أحدهما على الآخر مجرد اجتهاد بين العلماء، يتبع متطلبات العصر ومقتضياته، يرى البوطى أن الخلاف بين الفريقين خلاف لفظي وشكلي فقط[١٨].

إذن كان التأويل الإجمالي في عصر السلف أفضل وأجدى للظروف المحيطة بهم والحالة التي كانوا فيها، فإنهم لم يكونوا يجدون من حولهم ما يدعوهم إلى أن يقتحموا مخاطر التأويل التفصيلي، ولكن عندما تغيرت الظروف ودخل الإسلام من العجم والمنافقين وظهرت الفرق المنحرفة بما فيهم الحشوية والمشبهة والمجسمة، وأصبحت اللغة العربية مقعدة ومقننة وما إلى ذلك من الظروف التي ولدت فيما بعد مما لم يكن موجودا ولا متصورا في عصر السلف، فلم يجد العلماء الغيورون بدا من سلوك مسلك التأويل التفصيلي، حيث لو لم يفعلوا ذلك لاتُّهِمَ ديننا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بالتناقض والغموض كما نتهم المسيحية القائمة الآن بهذه الإتهامات.

ولم يعدم الخلف سندا في جواز التأويل عند السلف، فإنهم وجدوا من رجال السلف من أوّلها تأويلا تفصيليا، ولم يقفوا عند حدّ التأويل الإجمالي حيال النصوص المتعلقة بموضوع الصفات والتوحيد، وبيّنوا أن الظاهر منها غير مراد.

وقد نقل عن سيّدنا ابن عبّاس رضي الله عنه تأويلات كثيرة فيما يتعلق بمسألة الصفات. ومن ذلك ما صحّ من تأويل الصحابي الجليل ابن عباس رضي الله عنه من تأويل قوله تعالى: «**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ**»[١٩]، فأوّلَ الساق بالشدة[٢٠]. ومن ذلك أيضاً ما نقله الطبري في تفسيره من تأويل ابن عباس رضي الله عنه لكلمة «النسيان» الواردة في قوله تعالى: «**فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا**»[٢١] بـ «الترك» حيث قال الطبري: «أي ففي هذا اليوم – وذلك يوم القيامة – ننساهم، يقول

---

١٨ أنظر : المرجع السابق ، نفس الصفحة .

١٩ سورة القلم: الآية ٤٢.

٢٠ العسقلاني ، ابن حجر (١٣٩٨هـ-١٩٧٨م) **فتح البارى بشرح صحيح البخاري** ، مراجعة والتعليق : طه عبد الرؤوف سعد، ومصطفى محمد الهوارى، والسيد محمد عبدالمعطي ، القاهرة : شركة الطباعة الفنية المتحدة ، جـ١٣، صـ٤٢٨.

٢١ سورة الأعراف: الآية ٥١.

Jurnal Usuluddin 29.indb 260 9/27/2010 5:34:04 PM

نتركهم في العذاب»[٢٢].

ومن ذلك أيضا ما نقله ابن كثير عما رواه البيهقي عن الحاكم عن أبي عمرو بن السماك عن حنبل أن أحمد بن حنبل تأوّل قول الله تعالى: «**وَجَاءَ رَبُّكَ**»[٢٣] بـ «أنه جاء ثوابه»[٢٤]. ومن ذلك أيضا ما نقله الحافظ البيهقي عن الإمام البخاري من أنه قال: إن معنى الضحك الرحمة[٢٥]. وما نقل عن تأويل السلف كثير، مما يدل على أنهم لم يفهموا من النصوص ظواهرها كما يدعى المشبهة الحشوية، بل أوّلوها بما يتفق مع جلال الله وعظمته سبحانه وتعالى.

الإمام الغزالي والمتشابهات

يعتبر الإمام الغزالي من كبار علماء الأشاعرة الذين دافعوا عن عقيدة التنزيه، ونفوا أن يكون الله مختصا بجهة معينة أو مكان معين، وبالتالي فقد ذهب إلى صرف معنى الآيات المتشابهات عن ظاهرها وتأويلها بما يتفق وتنزيه الله تعالى وتقديسه عن كل ما يوهم النقص والعجز.

وللإمام الغزالي موقف فريد حيال النصوص المتشابهات. فهو يعترف في البداية بوجود تصادم في أول النظر وظاهر الفكر بين المعقول والمنقول[٢٦]، إذ توجد آيات وأحاديث تشير بظاهرها إلى التجسيم والتشبيه في ذات الله تعالى وصفاته، وفي هذا مما يخالف ما ذهب إليه العقل في التنزيه، ومن كذب العقل فقد كذب الشرع، إذ بالعقل عرف صدق الشرع، ولولا صدق دليل العقل – كما يقول الإمام الغزالي – لما عرفنا الفرق بين النبي والمتنبي والصادق والكاذب، ويتسائل حجة الإسلام: «وكيف يكذب العقل بالشرع؟ وما ثبت الشرع إلا بالعقل»[٢٧]. ومن هنا أجاز صرف هذه الآيات والأحاديث عن ظواهرها وتأويلها تأويلا يتفق ودلالة العقل.

---

٢٢ الطبري ، محمد بن جرير ، ب.ت. **جامع البيان في تأويل آي القرآن** ، حققه وخرج أحاديثه : محمود محمد شاكر، مصر : دار المعارف ، جـ٥ صـ٢٠١.

٢٣ سورة الفجر: الآية ٢٢.

٢٤ ابن كثير ، الحافظ (١٤١٤هـ – ١٩٩٤م) . **البداية والنهاية** ، تحقيق : أحمد عبد الوهاب فتيح ، القاهرة : دار الحديث ، جـ١٠، صـ٣٥٤.

٢٥ البيهقي ، الحافظ أبو بكر ، ب.ت، **الأسماء والصفات**، تصحيح وتعليق :المحقق محمد زاهد الكوثرى، القاهرة : دار إحياء التراث العربي ، صـ٢٩٨، ٤٧٠.

٢٦ الغزالي ، محمد أبو حامد (١٩٨٥م) ، **قانون التأويل** ، القاهرة : مطبعة الجندى صـ٢٣٥

٢٧ المرجع السابق صـ٢٣٩.

Jurnal Usuluddin 29.indb 261 9/27/2010 5:34:04 PM

وقد ذهب الإمام الغزالي إلى أن الناس – إزاء تلك النصوص التي تشير بظاهرها إلى التجسيم والتشبيه – ينقسمون إلى فريقين: عوام وعلماء، وأن لكل فريق منهما مقاما يخصه.

المقام الأول: مقام عوام الخلق

ويرى الإمام الغزالي أن اللائق بهم أن لا يخاض بهم في التأويلات، بل يجب على الواعظ أن ينزع عن عقائدهم كل ما يوجب التشبيه ويدل على الحدوث، وأن يحقق عندهم أنه تعالى موجود «**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَمِيعُ البَصِيرُ**»[٢٨].

ويقول الإمام الغزالي: «بل الواجب عليهم الإقتصاد في التقديس ونفي التشبيه، وأنه تعالى منزه عن الجسمية وعوارضها، والواعظ يبالغ في هذا بما أراد حتى يقول: كل ما خطر ببالكم، وهجس في ضميركم وتصور في خاطركم فالله تعالى خالفها، وهو منزه عنها وعن مشابهتها»[٢٩]. ويخبرهم أن المراد بالنصوص الموهمة ليس شيء من ذلك. وذلك لأن عقول العوام لا تتسع لقبول المعقولات ولا إحاطتهم باللغات، ولا تتسع لفهم توسيعات العرب في الإستعارات[٣٠].

ويشدد على العوام عن السؤال في المتشابهات، وإذا سألوا عن معاني هذه الآيات زجرهم ومنعهم وضربهم بالدره كما كان يفعل سيدنا عمر رضي الله عنه لمن سأل عن الآيات المتشابهات وكما فعله صلى الله عليه وسلم في الإنكار على قوم رآهم خاضوا في مسألة القدر وسألوا عنه، فقال عليه السلام: «أفبهذا أمرتم»، وقال: «إنما هَلَكَ من كان قبلكم بكثرة السؤال»[٣١]. فيجب عليهم السكوت فيها وعدم السؤال عنها. ويمكن إجابة العوام أيضا بأنكم لستم من أهل معرفتها والسؤال عنها فاشتغلوا بالتقوى، فما أمركم الله تعالى به فافعلوه ومانهاكم عنه فاجتنبوه، وهذا قد نهيتم عنه، فلا تسئلوا عنه، ومهما سمعتم شيئاً من ذلك فاسكتوا وقولوا آمنا وصدقنا وما أوتينا من العلم إلا قليلاً[٣٢].

---

٢٨ سورة الشورى: الآية ١١.

٢٩ الغزالي ، محمد أبو حامد (١٩٩٠م)، **إلجام العوام عن علم الكلام** ، بيروت : دار الكتب العلمية ، صـ١٥.

٣٠ الغزالي ، محمد أبو حامد (١٤٠٣هـ ١٩٨٣م). **الاقتصاد في الاعتقاد**، بيروت : دار الكتب العلمية ، صـ٣٦.

٣١ الغزالي ، **إلجام العوام عن علم الكلام** ، صـ١٥.

٣٢ المرجع السابق ، صـ١٦.

Jurnal Usuluddin 29.indb 262 9/27/2010 5:34:05 PM

المقام الثاني: مقام العلماء

فيرى الإمام الغزالى أن اللائق بهم معرفة معاني تلك الآيات والأحاديث، ولكن الإمام لا يوجب عليهم ذلك، بل يترك لهم الاختيار المطلق، ومن ثم يقول: «ولست أقول: إن ذلك فرض عين، إذ لم يرد به تكليف، بل التكليف التنزيه عن كل ما يشبهه، فأما معاني القرآن فلم يكلف الأعيان فهم جميعها أصلا»[٣٣].

ويصرح الغزالي بأن هؤلاء الذين حاولوا تأويل كل ما يخالف العقل من النصوص قد ارتقوا مرتقى صعبا وطلبوا مطلبا عظيما وسلكوا سبيلا شاقا، فلقد تشوقوا إلى مطمع ما أعصاه وانتهجوا مسلكا ما أوعره، وأن ذلك سهل يسير في بعض الأمور ولكن شاق عسير في الأكثر[٣٤].

ولذا يقدم الغزالي ثلاث وصايا لمن يخوض هذا المسلك الشاق وهي:

أولاً: أن لا يطمع في الاطلاع على جميع ذلك... فإن ذلك في غير مطمع، لقوله تعالى: «**وَمَا أُتِيتُم مِنَ الْعِلمِ إِلاَّ قَلِيلاً**»[٣٥].

ثانيا: أن لا يكذب برهان العقل أصلا، فإن العقل لا يكذب، ولو كذب العقل فلعله كذب في إثبات الشرع إذ به عرفنا الشرع، فكيف يعرف صدق الشاهد بتزكية الكاذب، والشرع شاهد بالتفاصيل والعقل مزكى الشرع.

ثالثاً: أن يكف عن تعيين التأويل عند تعارض الاحتمالات، فإن الحكم على مراد الله سبحانه ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم بالظن والتخمين خطر[٣٦]، ويرى الغزالي أن التوقف عن التأويل في هذه الحالة أسلم.

ويظهر مما سبق أن الإمام الغزالي لا يفتح باب التأويل على مصراعيه، بل يضع القواعد والقوانين والشروط التى ينبغي مراعاتها عند اللجوء إلى التأويل، ويؤلف في هذا الغرض كتابا سماه **قانون التأويل**، وذكر هذه الشروط أيضا في كتابيه: **إلجام العوام عن علم الكلام** و**الاقتصاد في الاعتقاد**.

وبعد هذا السرد عن موقف علماء الأمة من أهل السنة والجماعة حيال النصوص

---

٣٣ الغزالي ، **الاقتصاد في الاعتقاد**، صـ٣٦.
٣٤ الغزالي ، **قانون التأويل**، صـ٢٩٣.
٣٥ سورة الاسراء : الآية ٧٥.
٣٦ الغزالي ، **قانون التاويل**، صـ٢٤١.

Jurnal Usuluddin 29.indb 263 9/27/2010 5:34:05 PM

الموهمة، نأتي إلى مناقشة آرائهم تفصيلا. ولقد اخترت موضوعا واحدا من المسائل التي أثيرت في الأونة الأخيرة باسم أنها هي عقيدة السلف، وهي مسألة إثبات الجهة والمكان بالنسبة لله تعالى.

تنزهه تعالى عن الزمان والمكان

نجد علماء أهل السنة والجماعة يسلكون في التنزيه أقصى الدرجات حتى أنهم نفوا عنه الجهات والأمكنة والحدود وكل ما يدل على الحدوث، وفكرة التنزيه أدت المعتزلة إلى إنكار الصفات المعنوية حتى لا تتعدد القدماء في حال إثباتها. ومستندهم في فكرهم هذا أمثال قوله تعالى: «**ليس كمثله شيء**» وقوله: «**سبحان ربك رب العزة عما يصفون**» وقوله: «**ولم يكن له كفوا أحد**». فدلالات هذه الآيات صريحة وواضحة في إثبات خالق مخالف لمخلوقاته، فلا يشبه الإله مخلوقاته في أمر من الأمور.

وفي المقابل فسر المشبهة كل الآيات والأحاديث المتشابهات بما يدل على الحدوث، وأجازوا على إلههم التحرك والنزول والجلوس، وارتضوا له اليد والعين والوجه وغيره من الأعضاء. فسروا الاستواء مثلا في الآيات بالاستقرار والجلوس الحسيين، قالوا: استوى على العرش بذاته، والمراد به القعود، وذهبت طائفة إلى أن الله سبحانه وتعالى على عرشه قد ملأه، وأنه يَقعد ويُقعد نبيه معه على العرش يوم القيامة، وقيل لابن الزاغوني: هل تجددت له صفة لم تكن له بعد خلق العرش؟ قال: لا، إنما خلق العالم بصفة التحت، فصار العالم بالإضافة إليه أسفل، فإذا ثبت لإحدى الذاتين صفة التحت ثبت للأخرى صفة استحقاق الفوق، قال: وقد ثبت أن الأماكن ليست في ذاته، ولا ذاته فيها، فثبت انفصاله عنها، ولابد من شيء يحصل به الفصل، فلما قال: «**ثُمَّ اسْتَوَى**»[٣٧]، علمنا اختصاصه بتلك الجهة : وقال ابن حامد: الحق يختص بمكان دون مكان، ومكانه الذى هو فيه وجود ذاته على عرشه، والأشبه أنه مماس للعرش والكرسي موضح قدميه، وقال ايضاً: أنه ينزل من مكانه الذي هو فيه فيزول وينتقل[٣٨].

هكذا تصور المشبهة إلَهَهُم مخصصين له – تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا – جهة

---

[٣٧] ابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن (١٤١٣هـ – ١٩٩٢م). **دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه**، حققه وقدم له: حسن السقاف، الأردن : دار الإمام النووي ، ص١٢٦ وما بعدها.

[٣٨] المرجع السابق ص١٩٧.

Jurnal Usuluddin 29.indb 264 9/27/2010 5:34:05 PM

معينة دون جهة مستدلين بظواهر الآيات المتشابهات التي اتفق السلف والخلف من الأئمة على صرف معناه المتبادر إلى الذهن إلى معنى يليق بذاته تعالى، ثم فَوَّضَ السلف المراد من الآية، وأول الخلف إلى الأوجه – التي سوف يأتي ذكرها مستندين إلى الآيات المحكمات التي لا تحتمل أكثر من معنى واحد.

مناقشة رأي المشبهة

قرر السلف والخلف على أن الآيات المتشابهات دلالتها ظنية، أنها لا تعارض الأدلة العقلية القاطعة، يقول الإمام التفتازاني — أحد أعلام الأشاعرة – في كتابه **شرح المقاصد**: «أنها ظنيات سمعية في معارضة قطعيات عقلية، فيقطع بأنها ليست على ظواهرها ويفوض العلم بمعانيها إلى الله تعالى مع اعتقاد حقيقتها جريا على الطريق الأسلم الموافق للوقف على إلا الله في قوله تعالى: «**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ**». أو تأول تأويلات مناسبة موافقة لما دلت عليه الأدلة العقلية على ما ذكر في كتب التفسير وشروح الحديث سلوكا للطريق الأحكم الموافق للعطف في «**إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**»[٣٩].

والذي دعا الخلف إلى سلوك مسلك التأويل – فوق ما ذكرناه – هو أن القواطع العقلية دلت على امتناع الجسمية والجهة بالنسبة لله تعالى كما رأينا في المبحثين السابقين. والظواهر النقلية مشعرة بحصول هذا المعنى، والجمع بين تصديقهما محال، وإلا لزم اجتماع النقيضين، والجمع بين تكذيبهما محال أيضا، وإلا لزم الخلو عن النقيضين. والقول بترجيح الظواهر النقلية على القواطع العقلية محال، لأن النقل فرع على العقل، فالقدح في الأصل لتصحيح الفرع يوجب القدح في الأصل والفرع معا، وهو باطل، فلم يبق إلا الإقرار بمقتضى الدلائل العقلية القطعية وحمل الظواهر النقلية إما على التأويل وإما على تفويض علمها إلى الله تعالى[٤٠].

وإنما قالوا: «إن النقل فرع على العقل» لأن الشرع –كما يذكر الشيخ الزبيدى –

---

[٣٩] التفتازاني ، سعد الدين (١٤٠٩هـ-١٩٨٩م)، **شرح المقاصد** ، تحقيق وتعليق : دكتور / عبد الرحمن عميرة ، تصدير : فضيلة الشيخ صالح موسى شرف، القاهرة : عالم الكتب ومكتبة الكليات الأزهرية ، جـ٤، صـ٥٠ وراجع أيضا : التفتازاني ، سعد الدين ، (١٣٢٦هـ)، **شرح العقائد النسفية** ، القاهرة: دار سعادت ، صـ٣٥.

[٤٠] الرازي ، فخر الدين ، ب.ت، **معالم أصول الدين** ، مراجعة وتقديم : طه عبد الرؤوف سعد ، القاهرة : مكتبة الكليات الأزهرية ، صـ٤٣ وراجع أيضاً : السنوسي ، **شرح الكبرى** ، صـ٥٠٢.

Jurnal Usuluddin 29.indb 265 9/27/2010 5:34:05 PM

إنما ثبت بالعقل، فإن ثبوته يتوقف على دلالة المعجزة على صدق المبلغ، وإنما ثبت هذه الدلالة بالعقل، فلو أتى الشرع بما يكذبه العقل – هو شاهده – لبطل الشرع والعقل معا[٤١]، فينبغي ترجيح الأدلة العقلية التي كانت سببا في ثبوت الشرع على الظواهر النقلية الموهمة نقصا في حق الله سبحانه وتعالى المستحيلة وصف ذات الله بها.

آيات الاستواء وآراء العلماء

فآيات الاستواء من هذا القبيل الذي يستحيل ظاهرها على الله تعالى المنزه عن الجسمية والتحيز، إذ الاستواء معناه المتبادر إلى الذهن – أو الظاهر – هو الجلوس والاستقرار، ولا يكون هذا إلا من جسم يجوز عليه الحركة أو السكون، ولأن العرش جسم مخلوق، ولا يستقر على الجسم إلا الجسم، وقد ثبت بالأدلة العقلية أنه تعالى ليس جسما ولا جوهرا ولا مختصا بجهة معينة، وبالتالى يستحيل وصفه تعالى بالاستقرار والجلوس.

وهنا تعارضت الأدلة العقلية مع ظواهر النص، فينبغي في هذا المقام تنزيه الله تعالى عما يوهمه ظاهر النص. يقول الرازى: "لما ثبت بالدليل أنه سبحانه وتعالى منزه عن الجهة والجسمية وجب علينا أن نضع لهذه الألفاظ الواردة في القرآن والأخبار محملا صحيحا لئلا يصير ذلك سببا للطعن فيها"[٤٢]. ولقد قامت الأدلة النقلية – مع ما ذكر من الأدلة العقلية – على امتناع إرادة الظاهر في آيات الاستواء، وهو معنى الاستقرار والجلوس، وهي أمثال قوله تعالى: «**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**»[٤٣]، وقوله عز وجل: «**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**»[٤٤]. لو كان الله مستقرا عَلَى العرش مختصا بجهة – كما يدعون – لكان له مثل ولكان له كفو أو نظير أو مثيل.

ثم أن ظاهر قوله تعالى: «**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ**»[٤٥]، وقوله تعالى: «**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**»[٤٦]، وقوله تعالى: «**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي**

٤١ الزبيدي، محمد بن محمد بن حسيني، ب.ت، **إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين**، القاهرة: مصطفى الحلبي، جـ٢، صـ١٠٥.

٤٢ الرازي، فخر الدين (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م)، **أساس التقديس**، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، صـ١٠٩.

٤٣ من آية ١١ سورة الشورى.

٤٤ من آية ٤ سورة الإخلاص.

٤٥ من آية ٤ سورة الحديد.

٤٦ من آية ١٦ سورة ق.

Jurnal Usuluddin 29.indb 266 9/27/2010 5:34:05 PM

الأَرْضِ إِلَهٌ»[٤٧]، وقوله: «**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنى مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ**»[٤٨] ... ينفي كونه تعالى مستقرا على العرش فوق السماء مختصا بجهة معينة.

فيجب أولا صرف الظاهر إلى معنى يليق بذاته تعالى، صرف الآيات المتشابهات من معانيها المتبادرة إلى الذهني إلى آيات محكمات لا تحتمل إلا وجها واحدا من المعنى. ثم تأويلها تأويلا يتفق مع تنزيهه تعالى كما هو مذهب الخلف أو تفويض علمها إلى الله تعالى كما ذهب إليه السلف.

معاني الاستواء

ولقد نزل القرآن بلغة العرب وجاءت كلمة «استواء» في لغة العرب على عدة معان:

منها: الاستمام، وذلك كما قال الله تعالى: «**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ اسْتَوَى**»[٤٩]، أي استتم شبابه. **ومنها**: بمعنى الاعتدال: قال بعض بنى تميم: «فاستوى ظالم العشيرة ومظلوم»، أي اعتدالا. **ومنها**: القصد إلى الشيء، قال الله تعالى: «**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**»[٥٠]، أي قصد خلقها. **ومنها**: الاستيلاء على الشيء كما قال الشاعر:

استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

ومنها: بمعنى الاستقرار، كقوله تعالى: «**فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ**»[٥١]، أي استقررت، وكقوله تعالى: «**وَلِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ**»[٥٢]، أي لتستقروا.

وجاءت على معان غير هذه[٥٣]. فتعيين إحدى هذه المعاني دون أخرى مجازفة وترجيح بدون مرجح. ويتعين وجوبا حمل معنى الاستواء على معنى يليق بجلاله سبحانه المقدسة عن سمت الحوادث، ومن هنا أجمع السلف والخلف على صرف

٤٧ من آية ٨٤ سورة الزخرف.
٤٨ من آية ٧ سورة المجادلة.
٤٩ من آية ١٤ سورة القصص.
٥٠ من آية ١١ سورة فصلت.
٥١ من آية ٢٨ سورة المؤمنون.
٥٢ من آية ١٣ سورة الزخرف.
٥٣ راجع: الزبيدي، **إتحاف السادة المتقين**، جـ٢ صـ١٠٧ وما بعدها.

Jurnal Usuluddin 29.indb 267 9/27/2010 5:34:06 PM

الظاهر المحال من هذه الآيات، وأما السلف طلبا للسلامة لم يعينوا المعنى المراد. ويمثل مذهب السلف ما نقل عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول والإقرار به إيمان والجحود به كفر»، وما نقل عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن أنه سئل كيف استوى على العرش، فقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، وعلى الله الرسالة، وعلى رسوله البلاغ، وعلينا التسليم». وأخرج البيهقي بسند جيد عن عبد الله بن وهب قال: كنا عند مالك، فدخل رجل فقال: يا أبا عبد الله، الرحمن على العرش استوى، كيف استوى؟ فأطرق مالك فأخذته الرمضاء ثم رفع رأسه فقال: «الرحمن على العرش استوى كما وصف به نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوع، ولا أراك إلا صاحب بدعة أخرجوه».

وسئل إمامنا الإمام الشافعي عن ذلك فقال: «آمنت بلا تشبيه، وصدقت بلا تمثيل، واتهمت نفسي في الإدراك، وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك». وكذا سئل الإمام أحمد عنه، فقال: «الاستواء كما أخبر لا كما يخطر للبشر»[٥٤].

وأما الخلف فقد اضطروا لتعيين المراد من هذه الآيات للأسباب السابقة ذكرها، ولعلماء الكلام في تعيين المراد من الاستواء المذكور في الآيات آراء منها:

الأول: حمل الاستواء على القهر والغلبة، وذلك شائع في اللغة إذ العرب تقول «استوى فلان على الممالك»، إذا احتوى على مقاليد الملك واستعلى على الرقاب، هذا ما ذهب إليه إمام الحرمين[٥٥]، ويقول: «إجراء الاستواء على ما ينبيء عنه في ظاهر اللسان –وهو الاستقرار – فهو التزام للتجسيم، وإن شكك في ذلك كان في حكم المصمم على اعتقاد التجسيم، ثم الاستواء بمعنى الاستقرار بالذات ينبيء عن اضطراب واعوجاج سابق، والتزام ذلك كفر»[٥٦].

٥٤ راجع الشنقيطي ، محمد الخضر بن مايابي ، **استحالة المعية وما يضاهيها من متشابه الصفات** ، مصر :المطبعة المحمودية التجارية الكبرى، ص٣٥٦-٣٥٧ .

٥٥ راجع: الجويني ، إمام الحرمين أبو المعالي (١٩٥٠م) **الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد**، حققه وعلق عليه وقدم له وفهرسه : د. محمد يوسف موسى ، وعلى عبد المنعم عبد الحميد ، مصر: مطبعة السعادة ، ص٤٠ وانظر أيضا : الجويني ، إمام الحرمين أبو المعالي (١٣٨٥هـ-١٩٦٥م) **لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة** ، تقديم تحقيق : د. فوقية حسين محمود ، مصر : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ص٤٩.

٥٦ راجع: الجويني ، **الإرشاد** ص٤١.

Jurnal Usuluddin 29.indb 268 9/27/2010 5:34:06 PM

الثاني: حمل الاستواء على معنى قصد ، معنى قوله:» الرحمن على العرش استوى» أي قصد الإله إلى خلق العرش ، ويعزو الإمام الجويني هذا التأويل إلى سفيان الثورى رحمه الله واستشهد عليه بقوله تعالى: «**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**»[٥٧]، معناه قصد إليها[٥٨] . فهذا الذي ارتضاه الإمام أبو المظفر الاسفراييني .

الثالث: ذهب الإمام الأشعري إلى أن الله تعالى فعل في العرش فعلا سماه استواء كما فعل في غيره فعلا سماه رزقا ونعمة أو غيرهما من أفعاله. ثم لم يكيف الاستواء إلا أنه جعله من صفات الفعل لقوله تعالى: «**ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ**»؛ و»ثم» للتراخي، والتراخي إنما يكون في الأفعال، وأفعال الله تعالى توجد بلا مباشرة منه إياها ولا حركة[٥٩] . وذهب الإمام تقي الدين السبكي أيضا مذهب الإمام الأشعري في أن الاستواء فعل من الأفعال، لأن قوله تعالى: «**ثُمَّ اسْتَوَى**» صيغة فعل مقرونة بما يدل على التراخي، وذلك يدل على أن الاستواء فعل له تعالى متقيد بالزمن وبالتراخي، شأن سائر الأفعال، وعدّ ذلك صفة إخراج للكلام عن ظاهره؟ ويرى أيضا أن «المستوى» لم يرد في عداد أسماء الله الحسنى؛ لا في الكتاب ولا في السنة حتى يصح إطلاقه على الذات العلية على أن يكون صفة أو علما[٦٠] .

وابن حزم أيضا يذهب إلى قريب من مذهب الإمام الأشعري – ويعتبر حقا – في أن معنى قول الله تعالى: «**الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**» أنه فعْلٌ فعله في العرش، ولكنه يرى أن معناه: انتهاء خلقه إليه، فليس بعد العرش شيء، ويشرح هذا حيث يقول: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الجنات، وقال: فاسئلوا الله الفردوس الأعلى، فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة، وفوق ذلك عرش الرحمن»، فصح أنه ليس وراء العرش خلق، وأنه نهاية جرم المخلوقات الذي ليس خلفه خلاء ولا ملاء... والاستواء في اللغة يقع على الانتهاء. قال تعالى: «**وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا**»، أي فلما انتهى إلى القوة والخير، وقال تعالى: «**ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ**

---

٥٧ راجع: الزبيدي ، **إتحاف السادة المتقين** ٢/١٧ وما بعدها.

٥٨ راجع: الاسفراييني ،**التبصير في الدين**، صـ١٤٤.

٥٩ راجع : البيهقي ، **الأسماء والصفات**، صـ٤١٠.

٦٠ الكوثري ، محمد زاهد ، ١٣٥٦هـ – ١٩٣٧م، **تكملة الرد على نونية بن القيم**. القاهرة : مطبعة السعادة ، صـ٨٥ ومابعدها. (مطبوع على هامش كتاب: السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل لتقى الدين السبكى .

Jurnal Usuluddin 29.indb 269 9/27/2010 5:34:06 PM

وَهِيَ دُخَانٌ»، أي أن خلقه وفعله انتهى إلى السماء بعد أن رتب الأرض على ما هي عليه[٦١]. ثم يقول: «وهذا هو الحق وبه نقول لصحة البرهان به وبطلان ماعداه» .

الرابع: منهم من فسّر الاستواء في الآية بالاعتلاء، أي أن الله تعالى في السماء فوق كل شيء معتل على عرشه بمعنى أنه عال عليه كما يقال: استويت على ظهر الدابة، واستويت على السطح بمعنى علوته. واستوت الشمس على رأسي، واستوى الطير على قمة رأسي بمعنى علا في الجو، فوجد فوق رأسي، والقديم سبحانه عالٍ على عرشه، ويعزو الإمام البيهقي هذا الرأي إلى أبي الحسن علي بن محمد الطبري[٦٢] .

الخامس: وفسّر بأن المراد من الاستواء هو الاستيلاء والقهر والغلبة، ونفاذ القدر، وجريان الأحكام الإلهية، وهذا مستقيم على قانون اللغة فقد قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

هذا مذهب الإمام فخر الدين الرازي في **أساس التقديس**. يقول في تقرير هذا التأويل: «والذي يقرر ذلك أن الله تعالى إنما أنزل القرآن بحسب عرف أهل اللسان وعاداتهم، ألا ترى أنه تعالى قال: «**وَهُوَ خَادِعُهُمْ**»[٦٣] وقال: «**وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**»[٦٤] وقال: «**وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ**»[٦٥] وقال: «**اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ**»[٦٦] ، والمراد في الكل: أنه تعالى يعاملهم معاملة الخادعين والماكرين والمستهزئين، فكذا ههنا، المراد من الاستواء على العرش: التدبير بأمر الملك والملكوت»[٦٧] .

ويؤيد الرازي في هذه النظرة أحد الأعلام الماتريدية وهو الشيخ كمال بن الهمام في كتابه المسايرة في علم الكلام حيث يقول: «فأما كون المراد أنه استيلاؤه على العرش فأمر جائز الإرادة إذ لا دليل على إرادته عينا... وإذا خيف على العامة عدم فهم الاستواء إذا لم يكن بمعنى الاستيلاء إلا بالاتصال ونحوه من لوازم الجسمية، وأن لا ينفوه فلا بأس بصرف فهمهم إلى الاستيلاء، ويستدل على هذا بقول الشاعر:

---

٦١ الأندلسي ، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، جـ٢ صـ٢٩٠.
٦٢ البيهقي ، **الأسماء والصفات**، صـ٤١٠.
٦٣ سورة النساء: الآية ١٤٢.
٦٤ سورة الروم: الآية ٢٧.
٦٥ سورة آل عمران: الآية ٥٤.
٦٦ سورة البقرة: الآية ١٥.
٦٧ الرازي ، **أساس التقديس** صـ٢٠٢.

Jurnal Usuluddin 29.indb 270 9/27/2010 5:34:07 PM

فلما علونا واستوينا عليهم جعلناهم مرعى لنسر وطائر[٦٨]

واعترض البعض على تفسير الاستواء بالاستيلاء، لأن الاستيلاء عبارة عن حصول الغلبة بعد العجز، وإنما يقال "فلان استوى على كذا" إذا كان له منازع ينازعه. ثم إن الاستيلاء يقتضى أن يكون المستولى عليه موجودا قبل ذلك، ولذا يرى الشيخ زروق أن هذا التفسير رده غير واحد من الأئمة[٦٩].

وأجيب عن هذه الاعتراضات بأن المراد بالاستيلاء القدرة التامة الخالية عن المنازع والمعارض والمدافع[٧٠] وبهذا يندفع الشبه السابقة.

السادس: أما الإمام الغزالي فقد فصل القول في هذا، فجعل «الاستواء» نسبة للعرش وحصر هذه النسبة في عدة أمور. قال: «ولا يمكن أن يكون للعرش إليه نسبة إلا بكونه معلوما، أو مرادا أو مقدورا عليه، أو محلا مثل محل العرض، أو مكانا مثل مستقر الجسم»[٧١]. فيبدأ الإمام الغزالي في تفنيد ما تستحيل عقلا بالنسبة لله تعالى من هذه النسب، وما لا يصلح اللفظ للاستعارة به حتى يبقى على نسبة لا يحيلها العقل ولا ينبو عنها اللفظ، ويقول: «أما كونه مكانا أو محلا كما كان للجوهر والعرض، إذاً اللفظ يصلح له ولكن العقل يحيله، وأما كونه معلوما ومرادا فالعقل لا يحيله ولكن اللفظ لا يصلح له، وأما كونه مقدورا عليه وواقعا في قبضة القدرة ومسخرا له مع أنه أعظم المقدورات ويصلح الاستيلاء عليه لأن يمتدح به وينبه به على غيره الذي هو دونه في العظم، فهذا مما لا يحيله العقل ويصلح له اللفظ، فأخلق بأن يكون هو المراد»[٧٢].

وجنح معظم الأئمة على تفسير كلمة الاستواء الواردة في التنزيل بالاستيلاء والقدرة والغلبة وغيرها من المعاني التي تليق بذاته سبحانه وتعالى. ولم يفهم أحد منهم

---

٦٨ ابن الهمام ، كمال ، ب. ت ، **المسايرة في علم الكلام** –للعلامة كمال بن الهمام، القاهرة : المطبعة المحمودية التجارية، صـ١٨.

٦٩ زروق ، أحمد ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، **إغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد** ، ورقة ١٤.

٧٠ الرازي ، **أساس التقديس**، ٢٠٣.

٧١ الغزالي ، أبو حامد ، ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م، **الاقتصاد في الاعتقاد**، بيروت : دار الكتب العلمية ، صـ٣٨.

٧٢ الغزالي ، **الاقتصاد في الاعتقاد**، صـ٣٨ – وراجع أيضا لمعرفة المزيد من تأويلات الأئمة لكلمة الاستواء السيوطي ، جلال الدين (١٩٧٨م) ، **الاتقان في علوم القرآن**، القاهرة :مصطفى الحلبي ، جـ٢ صـ٧٠٦.

Jurnal Usuluddin 29.indb 271 9/27/2010 5:34:07 PM

استقراره تعالى وجلوسه على العرش ولم يذهب لهذا المذهب إلا شرذمة قليلة أراد الله إضلالهم والطبع على قلوبهم حتى لا يتدبروا آيات الله؛ «**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**»[٧٣].

وبعد هذه الجولة في آيات الاستواء – عمدتهم في إثبات استقرار الله على العرش وعلوه الحسي – إلى آيات أخر استئنسوا بها في إثبات مدعاهم، ومن تلك الآيات التي جاءت فيها ذكر لفظ العلو والفوق.

أ) آيات العلو والفوقية

ومن الآيات التي توهم ظواهرها إثبات الحيز والجهة بالنسبة لله تعالى آيات ذكر فيها لفظ «الفوق»، ولفظ «العلو» مثل قوله تعالى: «**وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ**»[٧٤]، وقوله تعالى: «**يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ**»[٧٥]، وقوله تعالى: «**وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ**»[٧٦]، وقوله تعالى: «**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**»[٧٧] وغيرها من الآيات التي توهم ظاهرها – عند المشبهة – أن الله في جهة أعلى وفوق.

فالمجسمة والمشبهة ربطوا هذه الآيات بآيات الاستواء وأثبتوها فوقية وعلوا حسية وحقيقية، وقالوا إن الله فوق السماء والعرش فوقية حقيقية. أما السلف والخلف من الأمة اتفقوا على استحالة كون الظاهر مرادا من هذه الآيات لأن العلو الحسي من صفات الحدوث، ولذا فوض السلف المراد من هذه الآيات إلى علم الله تعالى وأوّل الخلف إلى ما يليق بذاته العلية، وقالوا إن الفوقية المقصودة بها في قوله: «**يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ**»، أي التعالى في العظم، وأنه فوقية المكانة والعزة. وكذا المراد من العلو في الآيات، هو علو المرتبة والمنزلة والعزة والسلطان لا علو الجهة والمكان.

يقول الشيخ سلامة العزامي في معرض محاججة المشبهة: «فإن علو المكان إنما هو من صفات ذوي الحدوث والإمكان، وجلّ القديم واجب الوجود عن الأمكنة والحدود، وكيف يفهم عالم بالمعقول والمنقول علو المكان في ذي الجلال والإكرام، ومن علا مكانه فما هو بعلي لذاته، وإنما العلو أصالة للمكان، فعلو ذي المكان

٧٣ سورة البقرة: الآية ٧.
٧٤ () سورة الأنعام: الآية ١٨، ٦٢.
٧٥ () سورة النحل: آية ٥٠.
٧٦ () سورة سبأ: آية ٢٣.
٧٧ () سورة الأعلى: آية ١.

Jurnal Usuluddin 29.indb 272 9/27/2010 5:34:07 PM

حينئذ علو عرضي لا اعتبار له عند من دقق النظر، وأين علو العالم بالعلم من علو الخادم بالسطح»[٧٨].

ولقد شاع في لغة العرب استخدام كلمة «فوق» فوقية المرتبة والمنزلة، يقال: «الرئيس فوق الوزير» أو «العلم فوق العمل»؛ لا يفهم منه عالم بأساليب اللغة العربية أن الرئيس فوق أكتاف الوزير بل فوقية المنزلة. وكذا قوله تعالى: «**وَرَفَعنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**»[٧٩]، لا يقال: أن الله اطلع بعضهم فوق أكتاف الآخر، بل الفوقية المعنوية. يقول الشيخ زروق: «يعني فوق العرش فوقية معنوية، كما يقال: السلطان فوق الوزير. والسيد فوق العبد والقاهر فوق المقهور وهو القاهر فوق عباده. فنسبة الفوقية له مساوية لكل موجود لأنها معنى ظهور القهر والاقتدار والجلال والعظمة فما فوق السماوات العلي في ذلك كما تحت الثرى»[٨٠].

فالعلو في وصفه تعالى علو ذاتي لا علو مكاني وقد سمى نفسه العلي والأعلى. فله من هذا العلو ما هو أشرفه وأرفعه وأعلاه. واستعمال العلو في هذا المعنى شائع في اللغة العربية، وقد ورد في الكتاب والسنة. وكذلك الفوقية، قال الله تعالى: «**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ**»[٨١]، وكذا قوله: «**وَإِنّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**»[٨٢]. فظهر بذلك بطلان التمسك بكلمة «فوق» أو «علا» في الآيات في إثبات الجهة لله تعالى – تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

ب) آيات أخر تمسك بها المجسمة

واستدل المجسمة على إثبات العلو الحسي بآيات أخر تعتبر من قبيل المتشابهات. فأشير إلى بعض منها مع ذكر رأي علماء الحق في ذلك.

قال تعالى: "**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**»[٨٣]، وقال: «**تَعْرُجُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ**»[٨٤]، وكذا الآيات التي ذكرت فيها كلمة النزول. وقد

٧٨ () العزامي، سلامة، ب.ت، **البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة**، القاهرة: مطبعة السعادة، ص٢٥٧.
٧٩ () سورة الزخرف: الآية ٣٢.
٨٠ زروق، **إغتنام الفوائد في شرح قواعد العقائد**، ورقة ١٥.
٨١ سورة القصص: الآية ٤.
٨٢ سورة الأعراف: الآية ١٢٧.
٨٣ سورة فاطر: الآية ١٠.
٨٤ سورة المعارج: الآية ٤.

Jurnal Usuluddin 29.indb 273 9/27/2010 5:34:07 PM

ظنّت المجسمة من ظاهر هذه الآيات أنها دليل على أن معبودهم في السماء أو فوق السماء على العرش، ولم يعلموا أن العلو المكاني مستحيل على الله، ولم يعلموا أن المراد بالصعود هو كناية عن القبول.

يستحيل هنا أن يراد من الصعود المعنى الحسي الظاهر للآية. وذلك لأن الكلم عرض، والعرض لا يوصف بالصعود والنزول. وفي الشاهد أن ما يكون من الرعية إلى الملك فهو رفع إليه وإصعاد، وما يكون بالعكس فهو نزول ولو كان في مكان واحد. فعندما نقول: «رفعت الالتماس إلى الرئيس أو الملك»، و»نزل قرار من الرئيس بهذا الشأن» لا يلزم أن يكون الملك في مكان أرفع وأعلى من الرعية والرعية في مكان أسفل وأدنى، ولا يتصور هذا عاقل. وإذا صح أن يقال ذلك في المخلوقات التي تفاوتت الرتب بينهم فكيف لا يصح ذلك في ملك الملوك ذي الجلال والملكوت المتصف بالعزة والجبروت.

وأما الأخبار التي استدل بها المجسمة وأتباعهم على إثبات أن الله بجهة فوق فكثيرة. ومن أشهرها حديث النزول وحديث الجارية.

ج) حديث النزول

أما حديث النزول فقد أخرج الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ينزل ربّنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الأخير يقول: من يدعوني فأستجيب له»[٨٥]. استدل بهذا الحديث من أثبت الجهة لله على أنه في جهة العلو والفوق، وأنه ينزل حين يبقى ثلث الليل نزولا حقيقيا. وأنكر ذلك الجمهور لأن القول بذلك يفضى إلى التحيز تعالى الله عن ذلك.

ولقد أوّل السلف كلمة «النزول» الواردة في الحديث، فقالوا: إنه «نزول رحمة» لا «نزول انتقال»، وإلى هذا ذهب الإمام مالك[٨٦]. ومنهم من قال إنه مجاز في الإسناد بمعنى أن النازل هو ملك؛ أمره تعالى أن ينزل إلى سماء الدنيا فينادى عنه عز

---

٨٥ العسقلاني ، **فتح البارى في شرح صحيح البخارى** حـ٣ صـ٢٩. الإمام مسلم، **صحيح مسلم** حـ١ صـ٥٢٢.

٨٦ ابن عبد البر ، **التمهيد** ، جـ٧ صـ١٤٣ ، وراجع : الذهبي ، شمس الدين (١٤١٠هـ١٩٩٠م). **سير أعلام النبلاء**، بيروت : مؤسسة الرسالة ، جـ٨ صـ١٠٥.

Jurnal Usuluddin 29.indb 274 9/27/2010 5:34:08 PM

وجل بما ذكر في الحديث[٨٧]. ويؤيده ما ضبطه بعض المشايخ كما قال ابن حجر في **الفتح الباري**[٨٨] بضم الياء في «يُنزل»، أي أنه ينزل سبحانه وتعالى ملكا، أي يأمره بالنزول إلى سماء الدنيا فينادى. ويثبت ذلك أيضا ما رواه الإمام النسائي[٨٩] مرفوعا: «إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول، ثم يأمر مناديا ينادي يقول: هل من داع يستجاب له، هل من مستغفر يغفر له؟ هل من سائل يعطي؟»، وما رواه الإمام أحمد مرفوعا: «تفتح أبواب السماء نصف الليل، فينادي مناد هل من داع يستجاب له؟ هل من سائل فيعطي.....»[٩٠].

وإسناد الفعل إلى الآمر به من المجازات الشهيرة في الكتاب العزيز، قال تعالى: «**فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**»[٩١]، والمباشر للقراءة هو جبريل عليه السلام ولكنه تعالى أسند القراءة إليه، وهو من المجازات الشائع استعمالها. ثم إن العرب كما تطلق النزول على الإنتقال تطلقه على غيره كما جاء في القرآن: «**وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ**»[٩٢]، وكقوله تعالى: «**وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**»[٩٣]. ولم يفهم العرب من هذا النزول نزول قطعة حديد من مكان عال أو نزول جمل مثلا من مكان مرتفع. وهكذا لا يفهم عالم بالمعقول والمنقول أن معنى النزول في الحديث المذكور نزول حقيقي لذات الله تعالى، بل المراد نزول رحمة، أو نزول ملك من ملائكته، أو أن الله يكون قريبا من عباده بمعنى سريع الاستجابة في هذا الوقت الذي يسكن فيه الملأ وتخشع فيه القلوب[٩٤].

والمناقشة العلمية – فضلا عن المناقشة اللغوية – تثبت أن نزول الحق في الثلث الأخير من الليل إلى السماء الدنيا من المستحيلات، إذ يستمر الثلث الأخير في إحدى بقاع الأرض على مدار الساعة، وأثبت العلم الحديث كروية الأرض، فعندما تشرق الشمس

---

٨٧ العزامي ، **البراهن الساطعة** صـ٢٥٩.

٨٨ العسقلاني ، **فتح البارى** جـ٤ صـ٣٠.

٨٩ النسائي ، أبو عبد الرحمن (١٣٨٣هـ- ١٩٦٤م)، **السنن الكبرى** ، القاهرة : مصطفى البابي الحلبي ، (رقم الحديث ١٠٣١٦).

٩٠ بن حنبل ، أحمد ، ب.ت، **مسند الإمام أحمد** ،بيروت : دار صادر ، ٢٢/٤و٢١٧.

٩١ سورة القيامة: الآية ١٨.

٩٢ سورة الحديد: الآية ٢٥.

٩٣ سورة الزمر: الآية ٦.

٩٤ يراجع: العزامي ، **البراهن الساطعة** صـ٢٥٩ . وابن الجوزي ، أبو الفرج عبد الرحمن (١٤١٣هـ)، **دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه** ، حققه وقدم له: حسن السقاف ، الأردن : دار الإمام النووى ، صـ١٩٢ . وأيضا : الشنقيطي ، محمد خضر بن مايابي (١٩٩٢م) ، **استحالة المعية بالذات وما يضاهيها من متشابه الصفات** ، مصر : مطبعة المحمودية التجارية الكبرى ، صـ٣٠٠ وما بعدها.

Jurnal Usuluddin 29.indb 275 9/27/2010 5:34:08 PM

على إحدى البلاد تغرب عن بعضها، فلا يخلو الأرض من ثلث الأخير، فليس من المعقول أن ينزل الرب على أحد الأقاليم ثم يطلع منها وينزل مرة أخرى إلى إقليم آخر باستمرار.

د) حديث الجارية

أما حديث الجارية فهو كما رواه الإمام مسلم من حديث معاوية بن الحكم قال: كانت لي جارية ترعى غنما لي، فانطلقت ذات يوم، فإذا الذئب قد ذهب بشاةظن وأنا من بني آدم أسف كما يأسفون فصككتها صكة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم ذلك عليّ. فقلت: ألا أعتقها.....؟ قال: «ائتني بها»، فأتيت بها، فقال لها: «أين الله؟» قالت: «في السماء». قال: «من أنا»، قالت: «أنت رسول الله»، قال: «اعتقتها فإنها مؤمنه»[٩٥].

ولقد تكلم العلماء حول هذا الحديث حيث اختلفت ألفاظ هذا الحديث بين الروايات اختلافا بينا. انفرد مسلم بهذا اللفظ في حين لم يروه البخاري. وقد خالف كثير من الحفاظ هذا اللفظ الذي جاء في صحيح مسلم، فرووه بلفظ: «أتشهدين أن لا إله إلا الله» ؟ فقالت: نعم، قال: «أتشهدين أني رسول الله؟»، قالت: نعم، قال: «أتؤمنين بالبعث بعد الموت؟»، قالت: نعم. قال «فاعتقها»[٩٦]. يقول الشيخ سلامة العزامي: «والذي لا نشك فيه أن هذا التعبير من تصرف بعض رواه الحديث وأخطأ في تعبيره، وليس هو من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعا لظهور أن مشركي العرب كانوا يعتقدون أن الله في السماء ولم يخرجهم ذلك عن الشرك. وإنما الذي أخرجهم عن شركهم هو شهادة أن لا إله إلا الله، فكيف يكون سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم بأين؛ حاشاه من ذلك. وقد جود الحديث الإمام مالك بن أنس فأخرجه في **الموطأ** بلفظ «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: «أتشهدين أن لا إله إلا الله؟»، فقالت: نعم. ثم قال لها: «أتشهدين أن محمدا رسول الله؟». فقالت: نعم، فعند ذلك قال صلى الله عليه وسلم لمالكها: «أعتقها فإنها مؤمنة»[٩٧].

ثم فهذا الحديث في متنه احتمال، ومتى طرأ الاحتمال سقط الاستدلال. فلا

---

٩٥ مسلم ، **صحيح مسلم** جـ١صـ٢٨٢ رقم الحديث ٥٣٨.

٩٦ رواه أحمد في **مسنده** جـ٣ صـ٤٥٢ ، وقال الهيثمى في المجمع الزوائد. رجاله رجال الصحيح جـ٤ صـ٢٤٤.

٩٧ العزامي ، **البراهين الساطعة**، صـ٢٦٣. الحديث رواه الإمام مالك في **الموطأ** جـ٢ صـ٧٧٧ في «كتاب العتق والولاء» باب ما يجوز من العتق في الرقاب الواجبة.

Jurnal Usuluddin 29.indb 276 9/27/2010 5:34:08 PM

نستطيع الاستدلال بهذا الحديث وخاصة فيما يتعلق بناحية الإعتقاد؛ **أولا**: لمخالفة هذا الحديث لما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا أتاه شخص يريد الإسلام سأله عن الشهادتين، فإذا قبلهما حكم بإسلامه. يقول الإمام الكوثري: «أنه لم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في تلقين الإيمان طول أداء رسالته السؤال بأين، أو ذكر ما يوهم المكان، ولا مرة واحدة في غير هذه القصة المضطربه. بل الثابت هو تلقين كلمة الشهادة[٩٨]. **وثانياً**: أن النبي صلى الله عليه وسلم بيّن أركان الإيمان في حديث سؤال جبريل، ولم يذكر فيه أن الله في السماء. فلا يثبت الاستدلال بهذا الحديث وحديث النزول على إثبات الفوقية الحسية بالنسبة لله تعالى.

وربما يستأنس المشبهة بعمل المسلمين سلفا وخلفا برفع أيديهم في دعائهم إلى الجهة الأعلى بأن الله في السماء. فنقول إنه لا يتم لهم الاستدلال بهذا العمل أيضا، لأن الدعاء عبادة كغيرها من العبادات، وأن الله عيّن لكل عبادة طريقة معينة وكيفية معينة يؤدي بها، فأمرنا الله التوجه بأيدينا إلى الجهة الأعلى عند الدعاء، فكما أنه تعالى جعل الكعبة قبلة للصلاة كذا جعل السماء قبلة للدعاء، فكما أن الله ليس حالا في الكعبة عند التوجه إليها بعبادة الصلاة كذلك لا يدل رفع الأيادي في الدعاء على أنه حالّ في السماء أو مقرّه هناك. لقد فسر بعض العلماء رفع أيدينا إلى السماء عند الدعاء بأن السماء مقرّ أرزاقنا كما أخبر تعالى: «**وفي السماء رزقكم وما توعدون**» [٩٩]، فنتّجه إلى هذه الخزانة في طلب الرزق، كما أن الملك إذا أراد توزيع المعونة لرعاياه ربما يطلب منهم التوجه إلى خزانته للحصول عليها، فليس من الضروري أن يكون الملك في تلك الخزانة. فالعاقل يعلم أن هذه الشبهة لا تساعدهم في مدعاهم في إثبات الجهة لله تعالى.

هكذا تتهافت شبه المشبهة – سواء كانت عقلية أو نقلية – أمام الحجج القوية والأدلة الدامغة التي ردّ بها أهل السنة والجماعة على دعواهم الفاسدة. فالله سبحانه وتعالى لا يحدّه المقدار ولا تحويه الأقطار، ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرضون ولا السماوات. وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده استواء منزها عن المماسة والإستقرار والتمكن والحلول والإنتقال، «ليس باستواء اعتدال عن اعوجاج ولا استقرار في مكان ولا مماسة لشيء من خلقه لكنه مستو

---

[٩٨] راجع الكوثري ، **تكملة الرد على نونية ابن القيم** ص٩٦.

[٩٩] سورة الذاريات : الآية ٢٢.

Jurnal Usuluddin 29.indb 277 9/27/2010 5:34:08 PM

على عرشه كما أخبر بلا كيف، بلا أين»[١٠٠].

فالله سبحانه وتعالى منزه عن أن يوصف بالإستقرار على العرش، تعالى على أن يحويه مكان كما تقدس على أن يحدّه زمان. أما تقدسه سبحانه وتعالى على المكان فللزوم سبق المكان على وجوده، وذلك يدلّ على حدوثه كما لا يصحّ في الحادث أن يصير قديما، ويلزم من إثبات المكان لله تعالى تعدّد القدماء. وهنا يروي الشيخ زرّوق قصة حتى يثبت بها أن الله منزه عن المكان يقول: «سئل عن دليل أهل السنة في أنه تعالى ليس في مكان، فقال: لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تفضلوني على يونس بن متى، يعنى لأنه عليه الصلاة والسلام قال ليلة الإسراء: «أنت كما أثنيت على نفسك»، ويونس عليه السلام قال في بطن الحوت: «لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»، فكل منهما خاطبه خطاب القريب الحاضر مع كون أحدهما تحت التخوم، والآخر فوق كل شيء عال»[١٠١].

وهنا يأتى سؤال مفاده، لو لم يكن الله تعالى على العرش، وإذا تنزه الله تعالى عن المكان فما هو الاعتقاد الصحيح في هذا الموضوع؟

أرى أن ما ذكره الإمام الغزالي في عقيدته هذا يعتبر قاعدة أساسية في هذا الباب. وهو قوله: «كان قبل أن خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان»[١٠٢] مع وجازة هذا الكلام يشمل بابا في الإعتقاد إذ الزمان والمكان مخلوقان، وكان الله قبل خلقهما، ولقد خلقهما الله وهو غير محتاج إلى أحدهما أو إليهما، ولم يطرأ عليه أي تغيير بعد خلقهما. قال الشيخ زروق في شرح هذا الكلام الغزالي: «وعلى ذلك مما قال بعض المشايخ لمريده: إذا قيل لك «أين معبودك»، أي شيء تقول؟ قال: «أقول حيث كان في الأزل». قال: فإذا قيل لك «فأين كان في الأزل؟». قال: «أقول حيث هو الآن، يعني أنه لا يتصف بالمكان أبدا كما لا يتصف به أزلا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كان الله ولا شيء معه وهو الآن على ما هو عليه كان»[١٠٣].

---

١٠٠ راجع : البيهقي ، أبو بكر (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م) ، **الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة** ، بيروت: دار الكتب العلمية ، وأيضا : الأشعري ، أبو الحسن ،ب.ت. **الابانة عن أصول الديانه** – تحقيق: د.فوقية حسين ، القاهرة : ص١٢.

١٠١ زروق ، **اغتنام الفوائد فى شرح قواعد العقائد** ، ورقة ١٧.

١٠٢ الغزالي ، أبو حامد ، (١٩٩١م)، **إحياء علوم الدين**، القاهرة : عيسى البابي الحلبي ، جـ١ص٨٣.

١٠٣ زروق ، **إغتنام الفؤائد في شرح قواعد العقائد** ، ورقة ١٨، .

Jurnal Usuluddin 29.indb 278 9/27/2010 5:34:09 PM

كلمة أخيرة

ومسك الختام لهذا المبحث ما نقله الإمام الباقلاني في الانصاف لبعض المحققين، وهو نص شبه جامع للتنزيه – من وجهة نظري – حيث يقول: «فهو سبحانه لا يظله فوق ولا يقيه تحت، ولا يقابله حد ولا يزاحمه عد، ولا يأخذه خلف ولا يحده أمام، ولا يظهره قبل ولا يفنيه بعد، ولا يجمعه كل، ولا يوجده كان ولا يفقده ليس، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم، وإن قلت: «متى»، فقد سبق الوقت كونه، وإن قلت: «أين»، فقد تقدم المكان وجوده، فوجوده إثباته ومعرفته، توحيده أن تميزه من خلقه، ما تصور في الأوهام فهو بخلاف ذلك، كيف يحل به ما منه بدءه أو يتصف بما هو إنشاؤه لا تمثله العيون ولا تقابله الظنون. قربه كرامته وبعده إهانته علوه من غير ترق ومجيئه من غير تنقل. هو الأول والآخر والظاهر والباطن والقريب والبعيد الذي **لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**»[١٠٤].

[١٠٤] الباقلاني ، القاضي أبو بكر(١٤١٣هـ-١٩٩٣م) **الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به** ، تحقيق وتعليق وتقديم : الإمام زاهد الكوثرى ، مصر : مكتبة الخانجى ، صـ٤٢.

Jurnal Usuluddin 29.indb 279 9/27/2010 5:34:09 PM

Jurnal Usuluddin 29.indb 280 9/27/2010 5:34:09 PM